صفحة من تاريخ

الرهبانية الباسيلية الشويرية

بقلم الاب اثناسيوس حاج ق. ب.
مدبر الدروس في المدرسة الاكليريكية

٢

٥. بعض رجالها المشاهير

لما كانت شهادة الانسان بحقّ ذويه ضعيفة البرهان ، عمدنا الى شهادة هي من القوة بمكان ؛ لان مصدرها رومية . فقد ورد في مقدمة الفرائض التي دبجها السمعاني باشارة الكرسيّ الرسولي ما نصّه :

« . فكانت يد الرب على رجل يمينه وعلى ابن الانسان الذي شدّده له ، اي على الاب الصالح الذكر الخوري نيقولاوس الصائغ ، رجل يمين الرب الشهير بالاعمال والعلوم . . . فمدت هذه الكرمة المباركة قضبانها . . . اذ انتشرت . . بفضائل ابنائها وخاصة برؤساء الكهنة الخمسة : المطران مكسيموس ، رئيس اساقفة حلب الشهير باحتمال الشدائد من اجل الايمان ؛ والمطران اثناسيوس ؛ والمطران باسيليوس . . . والمطران جراسيموس الذي امتحن ايمانه فوجد افضل ثمناً من الذهب المجرّب في النار اذ كابد النفي من اجل الرب ؛ والمطران ناوفيطوس ، مطران صيدنايا ، الذي توفي في رومية العظمى حيث صار مشهداً للعالم وللملائكة والبشر . »

١ — المطران ناوفيطوس نصري († ١٧٣١)

هو سليل اسرة كاثوليكية من حلب ، ولد حوالي سنة ١٦٦٠ ، فرباه ابواه على الفضيلة والتقى ، فشبّ عليهما الى ان بلغ العقد الرابع من عمره ،

فاتى الى دير سيدة البلمند حيث لبس الاسكيم الرهباني . ثم سيم كاهناً ، ودعي الاب نصرالله . غير انه لم يلبث ان شعر بتلاشي الحياة الرهبانية في ذلك الدير . فاتفق مع الايومن جراسيموس وسليمان وغيرهما أن يذهبوا الى لبنان ، فيؤسسوا هناك رهبانية جديدة ، ويحيون حياة اكمل .

بيد ان رئيس البلمند خاف ان يلحق بهؤلاء سائر رهبانه ، فاشعر البطريرك بذلك . اما البطريرك فرأى ان يفرقهم ، ومن ثم ارسل الاب نصرالله الى ديار بكر ، حيث قام باعماله الرسولية احسن قيام ، فاعجب به الجميع ، ولا سيما البطريرك اثناسيوس الرابع ، الذي سامه اسقفاً على صيدنايا سنة ١٧٢٢ ثم ولاه على معلولا سنة ١٧٢٤ . ثم مات البطريرك فاجتمع الاساقفة الكاثوليكيون ومنهم المطران تاوفيطوس نفسه ، فاقاموا خلفاً له كيرلس . اما المشاقون فقد انتخبوا سلفستروس الذي شرع يضطهد البطريرك الكاثوليكي وكل من والاه من الاساقفة ، ولا سيما المطران تاوفيطوس ، الذي حكم عليه بالنفي . فلما علم هذا الاسقف بذلك صعد الى الدير مع تلميذه الخوري اغناطيوس ابن الشماس نعمه الحلبي فتلوا هناك فرض العذراء (الباراكليسي) وطلبا منها حفظ القطيع من الذئاب . ثم هربا فاختبا مدة ثلاثة عشر يوماً .

ولما ذهب الجنود ، عاد المطران الى دار الاسقفية ، فوجدها منهوبة ، فقال : « الرب اعطى والرب اخذ ، فليكن اسمه مباركاً . » ورأى ان الهرب الى لبنان اولى ، فقام اليه مع رفيقه . غير ان الجواسيس اخبروا الباشا بهربهما فارسل جنوداً يتعقبونهما . اما هما فكانا يختبئان في المغاور والجبال ، الى ان اتيح لهما ، بعد العناء الجزيل ، ان وصلا الى لبنان .

ولقد اعمى سلفستروس امر تاوفيطوس ، فعمد اخيراً الى اللين والرقة فكتب له قائلاً : « كفاك هياماً في الجبال كالوحوش . اشفق على نفسك ، وكن معنا ، واترك البابا واحرمه ، فاقيمك وكيلاً لي في دمشق . » فاجابه تاوفيطوس : « لأن ابقى في الجبال شريداً طريداً احبُّ اليَّ من سكنى قصور جميلة يعقبها الاقامة في جهنم . » ثم اعاد سلفستروس الكرَّة عليه مازجاً التهديد بالتمليق فلم يزدد الاسقف الا شجاعة وشهامة واجاب سلفستروس جواباً يذكرنا باجوبة

الشهداء للمضطهدين : « اولاً انا في حضن كنيستي منذ سبعين سنة ولن اخرج منها . ثانياً انت حزين عليّ ، اما انا ففي غبطة وسرور . ثالثاً تتوعدني بالموت واني مستعدّ لـه . رابعاً اما البابا فهو نائب المسيح ومن يستطيع ان يجدف عليه ... فاخضع له تكن راعياً حقيقياً ...»

اخيراً رأى الاسقف ان يستقيل من ابرشيته ففعل وسافر الى رومية ، فوصل اليها في ٣٠ آب . وبقي هناك مدة اربعة اشهر وتوفي برائحة القداسة .

ان الله تعالى ، الذي يجعل قديسيه في الارض عجباً ، قد اجرى بواسطة هذا القديس بعض الامور العجيبة التي يخبرنا بها شهود ثقات . منها ما حدث على يده مدة حياته وقد ذكر بتفصيل في مجلة صوت الحق سنة ١٩٢٣ . واما العجائب التي جرت بعد موته فقد اشار اليها السمعاني كما ذكرنا ونوّه بعظمتها سجلّ الرهبانية ووصفها بتدقيق القس اغناطيوس قنديلفت[1] رفيق الاسقف فقال :

« بعد ان وصلنا الى رومية باربعة اشهر ذهبنا لزيارة الآباء اليسوعيين . وبينما كنا ماريّن في الشوارع رأينا جمعاً غفيراً قد تألب لاستقبال سفير مالطه . فوقفنا قليلاً ، ولكن اتفق ان عربة حادت عن طريقها ولطمتنا ، فكسرت ضلع الاسقف وصدمت رجلي ويدي . فحملونا الى دكان قريبة واستدعوا لنا طبيباً . ففحصنا فوجد ان لا خطر عليّ ، واما الاسقف فكانت حالته خطرة جداً . فامر الطبيب ان ننقل الى مستشفى الروح القدس حيث بقيت اربعة ايام وشفيت ، خلافاً للاسقف الذي ازدادت حالته خطراً .

« وفي ذات يوم استدعاني سيادته وقال لي : « انني اشعر بدنوّ اجلي فاعطني الزيت المقدس .» فاجبته . « ان صحتك على تقدم فلا حاجة لذلك .» فاجابني : « لم يبقَ لي فوق هذه الغانية سوى يوم واحد .» فاعلمت الرئيس بكل ذلك . فامر بان يمسح بالزيت المقدس . وبعد المسحة ، طلب سيادته ان اقرأ له قانون يسوع الحلو . وبعد نهاية الصلاة ختمها كعادته ، والتفت اليّ قائلاً : « يكفي الآن . فاذهب وتناول طعامك .» ولما رفضت معتذراً ، قال لي : « لقد دنت الساعة ، فاذهب يا ولدي .» فلبيت الامر ، ولما عدت

(١) اغناطيوس نسمه (٢)

اليه سألني: «كم الساعة؟» فقلت: «هو نصف النهار.» فقال: «استودعك الله يابني، لاني سابارح هذا العالم.» فطفقت ابكي. فقال لي: «لا تبكِ، يا ولدي، بل قدّم بعض قدّاسات لراحة نفسي.» ثم قال: «فليبتهج قلبي ونفسي بالاله الحي.» واسلم الروح.

«ولما تحققنا موته البسناه حلته الحبرية، وحملناه الى كنيسة المستشفى. وفي اليوم التالي اخذناه الى كنيسة البروپاغنده، واقمنا له جنازًا. بعد الصلاة، تقدّم المؤمنون لتقبيل يديه، فدهشوا لرؤيتهم جثته مبللةً بالعرق، فظنوا انه لم يزل حيًا. فلما علم البابا بالامر، ارسل اربعة من مشاهير الاطباء ليروا هل حالة الجثة طبيعية. وبعد الفحص المدقق وجدوها غير طبيعية.

«وكان بين الحاضرين رجل مصاب اخوه بداء السلّ الوبيل، وكان الاطباء قد يئسوا من شفائه. فاخذ شعرة من لحية الاسقف وذهب بها الى اخيه، واوعز اليه ان يبتلعها، ففعل. وللحال رقد ثم قام معافيًا وقوة. فاسرع الاخوان وخبرا الجمع بالقصة. فأخذ المؤمنون يتوافدون على الجثة بغية الحصول على بركة منه. فعرّوه من الشعر والثياب. فالبسناه حلّة اخرى لم يلبث ان عُرّي منها ايضاً.

«وبقيت الجثة في الكنيسة خمسة ايام، والعرق ينبث منها. وكان وجه الاسقف مشرقاً كأنّ الحياة لم تفارقه. وكان المرضى يتسابقون لاخذ اثر منه فيشفون حالاً.

«وبعد مضيّ خمسة ايام امر البابا الاطباء ان يفصدوه، ففتح احدهم جرحاً في ذراع الميت. وللحال خرج دم عندمي بغزارة كلية كما من جسم حي. فهجم المؤمنون متسابقين الى التقاطه بالقطن والمناديل. ولما رأى ذلك الاطباء والاساقفة الحاضرون، دوّنوا الحادث في السجلّ، ووقّعوا عليه. وامر البابا بدفنه، فواروا الجثة تحت الهيكل الكبير في كنيسة البروپاغنده، بعد ان وضعوا فوق تابوته صحيفة كتب عليها اسم مكرم «*venerabile*». وكان ذلك في ٢٤ شباط سنة ١٧٣١»

ولقد اتى على ذكر هذا الرجل القديس ووصف حياته وعماته بتفصيل،

كثيرٌ من المجلات الكاثوليكية ، وبنوع خاص مجلة « صدى الشرق » ، وذلك في المجلد الخامس ثم السادس ثم السابع ثم الثامن ثم التاسع . فيا حبذا لو يصل الرؤساء الشرقيون على تطويب هذا الاسقف ، اذن لكانوا يضيفون لؤلؤة جميلة الى لآلئ اكليل الكنيسة الشرقية.

٢ ــ الخوري نقولا الصائغ (١٦٩٢ — ١٧٥٦)

هو نقولا بن نعمه الصائغ ، ولد في حلب سنة ١٦٩٢ . وكان ابواه على جانب كبير من التقوى والصلاح ، فربّياه على الفضيلة ، ولم يهملا تعليمه بل جعلاه في احد المكاتب . فابدى من الذكاء والنبوغ ما اكبره فيه معلّموه . ولما تعلّم مبادئ العربية ، اخرجه ابوه ليعلّمه الصياغة ؛ فلم يلبث طويلًا حتى اتقنها . بيد انه كان يشعر من نفسه بميل الى الحياة النسكية مما كان يحدو به الى التردد المتواتر على الكهنة وعلى الكنائس . وكان يتردّد مع بعض رفاقه على شيخ مدقق في اللغة العربية ، فدرس عليه الصرف والنحو والبيان والعروض . ولم يكتفِ بذلك ، بل كان طامحاً الى العلوم العالية ولا سيما الكهنوتية فقيّض الله له ، ولابن عمه عبدالله زاخر ، ان يتعلّما على القس جبرائيل بن فرحات.

ولما كان العلم الحقيقي من شأنه ان يقرّب الى الله اكثر فاكثر ، ازداد هذا الرجل اشتياقاً الى العيشة الرهبانية. وكان قد سبقه اليها الابوان جراسيموس وسليمان الحلبيان ، اللذان كانت تصله اخبارهما واخبار رفاقهما بعد اقامتهم في دير مار يوحنا . وقد اطلع على رغبته في النسك القس جبرائيل فرحات الذي احبّه جدًّا ، وشجعه على تلبية دعوة الله . ولم تكن سنة ١٧١٥ حتى ابى هذا العبد الامين دعوة ربه ، فأمّ ربوع الشوير ، وكان الله يقود خطاه حتى وصل الى دير الصايغ . فكان له وللرهبان تعزية كبرى . وبعد ان مكث بضعة ايام ، لبس ثوب الابتداء ، فكان مثالًا فريدًا بتقواه ووداعته وكدّه مما خلب قلوب الرهبان وجمعها على حبه . وكان قد احضر معه جانباً من المال لاسقف الرهبانية ، فبنى سنة ١٧١٨ كنيسة القديس نيقولاوس مع خمس قلالي للرهبان.

وبعد ثلاث سنوات من دخوله الرهبانية ، سيم شماساً ، ثم قساً ؛ ولم تمرّ سنة على سيامته ، حتى انتخب مديراً ثانياً للرهبانية ، مما يدلّ على عظم الاعتبار الذي كان له على حداثة عهده . ولما مات مطران حلب سنة ١٧٢١ ، طلبته الطائفة ليكون خلفاً له ، فلم يحقق الله امنيّتهم هذه . وفي سنة ١٧٢٣ قلد رئاسة دير الصابغ ، فرقاه مادياً وادبياً . وكذا فعل بدير مار اشعياء الذي اقيم عليه رئيساً في السنة التالية . ولقد انتخب بعد ذلك رئيساً عاماً لاكمال مجمع سابق ، ثم مديراً اولاً ، ونائباً عاماً . وفي تلك الاثناء بنى ديراً للعابدات في الذوق على اسم « سيدة البشارة . » وكان في كل اعماله ، وفي كل المراتب التي يشغلها يتلهب غيرة على اخوته ، مما ادّى بهم الى تقليده زمام الرئاسة العامة منذ سنة ١٧٢٣ الى سنة ١٧٥٦ ، اي الى وفاته .

واما وفاته ووصف فضيلته فقد وردت باختصار في تاريخ الرهبانية :

« توفي في اليوم السابق لابتداء المجمع العام في دير مار ميخائيل الذوق . اقام الاب العام قداساً خشوعياً حسب عادته وبعد ذهابه الى قلايته ، شعر بالموت ، فاستدعى المدبر الاول فاعترف اعتراف الموت . فحضر حالاً آباء المجمع ، والسيد كير اثناسيوس فتحه سرّ المسحة ، وحينئذ بدأ يودّع الآباء ويعظهم . ثم مات وقد حزن الجميع لفقدهم ضياء هذا الكوكب الساطع الذي في حياته عمل وعلّم ، وبسيرته النسكية سقف وارشد ، وبعمله وفضائله اسس ورتب الرهبانية ، وبذكائه نظم الفرائض كباسيليوس ثانٍ . وفي حياته اقام وشيّد اديار الرهبانية القانونية »

اجل ان نيقولاوس الصائغ كما تشهد البراءة الرسولية نفسها هو الذي يستحقّ ان يُدعى مؤسس الرهبانية الحقيقي . فهو الذي الف الفرائض وطلب تثبيتها من الكرسي الروماني . وفي عهده غدت الرهبانية ذات اديار كثيرة اذ شيد دير سيدة البشارة في الذوق سنة ١٧٣١ ، واخذ دير مار برجس بسوق الغرب سنة ١٧٥٠ ثم دير سيدة الرأس سنة ١٧٥١ . ثم بنى دير النبي ايلياس بزحلة سنة ١٧٥٥ . وبسعيه ايضاً منح الحبر الاعظم الرهبانية كنيسة سيدة السفينة برومة مع مقام للرهبان .

لقد قضى مدة رئاسته كلها في جهاد متواصل ، لانه استلم زمام الرهبانية ايام الضيق والاضطهادات . والله يعلم كم قاسى هذا الرجل الكبير من المتاعب والنكبات ، وكم ابدى من العزم والحزم والثبات . فلم تكن الشدّة الّا لتزيده قوة ومضاء. شأن الذهب الذي لا تضرّ به النار بل تزيده صفاء ونقاء.

واما علمه الواسع فهو اشهر من ان يذكر ، وحسبك ما اتصل الينا من تآليفه لترى فيه الشاعر المجيد واللغوي الكبير والفيلسوف واللاهوتي ، واليك بعضاً من ابياته وهي قطرة من بحر.

قال يتشكى بمرارة من بعض الرؤساء المشاقين :

كثر العثارُ بعثرة الرؤساء ، وغوى الصغار بثرّة الكبراء
لما رأيت الراسَ ، وهو مهشّمٌ ، أيقنت منه تهشم الاعضاء.
أن كان طبُّ النفس اشجى داءها انّى تنال البرء من ادواء
هذه اعمودُ الحق ، وهي ثباتُه ، وبناؤها قد ساد كل بناء

. . .

وكأني به يشكو آلامه الجمة في قصيدته الحائية :

ليس لي راحةٌ بها استريحُ في حياتي ، الّا يسوع المسيحُ
عزتي في مذلتي ، وعزائي في بلائي ، وليس عنه جنوحُ :
هل يرى لي سواه لي من سكونٍ ، يا الهي ، من ذا سواك يريحُ ؟
انا مضنى لا استطيع حراكاً واقعٌ من اذى الخطوب طريحُ ،
ضاق صدري عن شرح حالي . . . .

وله في القربان الاقدس قصيدة تقارب المئة والعشرين بيتاً ، وهي قصيدة فلسفية لاهوتية كسائر قصائده الدينية.

وله في مديح العذراء قصائد عدة اودع فيها قلبه المضطرم حباً بها ، ومنها :

يا سدرة المنتهى ، الله رقاك ، طوباك ، يا منتهى الآمال ، طوباكِ !
يا نور عرش الله انت صفوته ، وخير خلق يرجّي نيل جدواكِ ،
لقد حكمت بامر الله في نعم لم يؤتها بشرٌ الا بنعماكِ ،
من لم تعمه السماوات الرحاب غدا بعجز الله موسوعاً باحشاكِ

وله فيها موشح ، هاك دوره الاول :

انني اشكو فواجي الالم ، لم يعد لي من جَلَدْ

---

١) الكتيبة الرومانية

زجٌّ بي جبلي بقاع الندم ، والنهى مني شرد
رشقتني شهوتي بأسهم اورثت قلبي لدد
غير اني ارتجي في مريم صفوة الله الاحد
خصها الله باسمى النعم عندما منها ورد.

. . . .

وله ايضاً البديعية الجميلة في مديح السيد المسيح ورسله الاطهار في ١٥٦ بيتاً ، نظمها ايام رئاسته على دير مار اشعيا سنة ١٧٢٤ ، وفيها من المعاني والتخيلات وانسجام العبارات ما يقضي بالاعجاب.

وله حكم جميلة منها :

العدل يبني ، والامان يشيدُ والجور يفني ، والهوان يبددُ ،
والحزم في الاحكام حكم فيصل تثنى به ناس وناسٌ تعندُ ،
والحكم سيفٌ في يمين ولاته قد ينتضى طوراً وطوراً يغمدُ.
لولا السيوف البائرات ، لكان هذا الدهر لم تكفف لباغيه يدُ.

. . .

وله قصيدة يذمّ فيها الغنى ويمتدح الفقر الاختياري ، منها :

لا تغبطنّ امرءاً بزهو بثروته ولا تخلنّهُ سعيداً ، فالثراء ثرى.
كم اذهب الذهب الموسوق من شرف سام ، وكم فضة قد فضّت الفكرا ،
والدرُّ كم درّ ضرّاً للعقول ، وكم من مستهام بحب التبر قد ثبرا.
ورد الثراء يزيد الناهلين صدًى ، فكلما زاد زادت كبدهم سعُرا.

وله ايضاً :

الدهر ريحٌ قلّبُ ، وبنوه برقٌ خلّبُ
ما فيهم الا فتى متأزّلٌ متقلبُ ،
برد سلام وجهه ، ورقوده يتلهّبُ
ما لذّ لي يوماً ، وعمر ايلك ، منهم مشربُ ؟
حاولت منهم مهرباً ؛ لكنّ اين المهربُ ؟
علوا الحداية مثلما عمل الطريق الثلبُ.
ولربّ خلّ خلته ممن به قد يُرغبُ ،
فوجدته في الجمر ممن يتعاذُ ويرهبُ

وله من قصيدة نُشرت منتخبات منها في المشرق (٢٥[١٩٢٧] ٦٠٢) :

ذا الدهر ميدان المصائب ، وبنوه فرسان المعاطبْ ،

ما هذه الدنيا التي هي للورى وادي المتاعب .
فخّ البلايا والرزايا ، والاسايا ، والمصاعب ،
تجري باحداثه الكوارث والبلى جريَ اللاعب
دهرٌ عجيبٌ لا تزال صروفه تبدي الاعاجب .

. . .

لو أنّ ضدّي غرّ بي ماكان ذاك من الغرائب ،
بل ، يا شقيق الروح ، انت كسوتني ثوب المذالب
وجعلتني غرضاً لهم منك رائته المصائب ،
كلماته كالزيت ليناً وهي كالبيض القواضب
بحرٌ هدا ، لكنه كم غرقت فيه مراكب !

وله تواريخ عديدة والغاز ونكات شعرية لطيفة . ومما يُنسب اليه قوله في الشرق :

رأيت بلاد الشرق ، في كل حالة ، بلاء وشرًّا فاض مكياله الوافي
فرخّمْ على غير القياس وقل اذن : « بلاد بلا دالٍ ، وشرق بلا قافِ ! »

وله ابيات اربعة من النوع البديعي الذي دعاه البعض بالتخيير الكليّ وهو ان يأتي الشاعر بقافية يجوز ابدالها بجميع قوافي الابجدية : وقد نشرها المرحوم الاب شيخو في السنة الاولى من المشرق (١[١٨٩٨] ١٠٧) وهي :

انّا تذكرتُ الحمامَ وهولَه عجباً لقلبكَ كيف لا [يتيأّ]

فيسوغ بدل القافية باحدى القوافي الآتية : يتقلب . يتفتت . يتحدث . يتشنّج . يتجرّح . الخ . . . .

واذا تفكرت الحساب وقسطه ، عجباً لفكرك كيف لا [يتأنّأ]
او يتحب . يتثنث . . . الخ .
واذا تخفقتَ الجحيم وحرها ، عجباً لقلبك كيف لا [تتلظّأ]
او تتلهب . . . الخ .
واذا تأملت النعيم وحسنه ، عجباً لقلبك كيف لا [يتملّأ]
او يتعجب . . . الخ .

خلاصة القول ان حسناته الشعرية كثيرة ، وانه لم يأتِ على الشعر ألّا عن فطرة شعرية طبيعية وطمعاً بنشر المبادئ الدينية والعلمية . فكان كالنحل الذي يندفع طبعاً وراء الزهر ليجني العسل اللذيذ .

(للبحث صلة)